إلى الدكتور زكي مبارك

خصومة أدبيـــة

للأســـتاذ السباعي بيومي

أولى الكلمتين

وعدت حضرات القراء في عدد الرسالة الأخير أني سأنشر في عددها المقبل كلمتين اثنتين ، أتوجه فيهما بالحديث إلى صديقي الدكتور زكي مبارك . وهذي أولى الكلمتين ، وهي كما رسمت حين وعدت ، ترمي إلى تقرير الموضوع الأصيل الذي من أجله كتب الدكتور

ألقيت محاضرة بمدرج على مبارك باشا في دار العلوم عن « أسلوب المبرد في كامله » وعقب انتهائي منها طلب أحد مستمعيها من طلاب كلية اللغة العربية السماح له بكلمة ، فأجبته إلى ما طلب ، وكانت كلمته أربعة أسئلة ألقاها ، رمى المبرد في رابعها بالغرور والادعاء ، وأنه كان لا يتحرى إذا أجاب . فرأيت الموقف يقضي عليّ أن أرد عليه ، وفعلاً رددت ، وكانت إجابتي عن السؤال الأخير تتلخص في نفي تلك الصفات الذميمة عن المبرد نفياً قاطعاً ، استدللت عليه بأمور ، منها أن من شأن من لا يتحرز في إجابته ألا يمسك إذا لم يثبت ، وإنما يرمي بالقول جزافاً ، ويخترع الإجابات اختراعاً ، وعهدنا بالمبرد أنه غير ذلك ، فقد رأيناه في كامله إذا عرض له مالا يعرفه اعترف بذلك ، خضوعاً لتلك الكلمة الجامعة التي لا ينزل على حكمها إلا الثقات الأعلام ، وهي « من قال لا أدري فقد أجاب » ثم أخرجت من الكامل شاهداً على ذلك أسمعته الحاضرين ، ومنها أن من خالط قلبه الغرور وتملكه الادعاء لم يك في مقدوره أن يخفي ذلك في مصنفاته ، بل لا بد أن يفضحه أسلوبه

ومهما تكن عند امرئ من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وليس في كامل المبرد على كثرة كسبه فيه ونسجه حول أصوله ، ما ينفي عنه صفة التواضع العلمي ، أو يلقي على أبحاثه ولو ظلاً صغيراً من الكبرياء والادعاء

ودعماً لهذا الاستدلال الأخير في أن أسلوب الكاتب يشف عن خلائقه ، قلت للسائل — وقد ذكر أنه استقى ذلك من شرح الشيخ المرصفي على الكامل — إن مؤلفات المرصفي هي التي تنم عن خلق الغرور والادعاء فيه ، كما يعلم ذلك من اطلع على هذا الشرح ومقدمته ؛ وكذلك من اطلع على مثلهما فيما عمله بديوان الحماسة . وقلت : وإنه لتأصل هذا الخلق فيه كان شديد التحامل على المبرد والتشهير به فيما يظن أن المبرد أخطأ فيه ؛ ثم قلت : وكم كنا نتمنى للشيخ المرصفي أن يجرد علمه من غروره ، ويسبل على تأليفه ثوباً ضافياً من التواضع والاعتدال ، حتى يكون ذلك أبين لفضله وأدل على نبله

وأخيراً قلت : ولا يبعد أن تكون البيئة العلمية التي عاش فيها المبرد قد تقولت عليه ما تقولت حسداً وبغياً ، فإن علماء عهده ما كانوا يعهدون من علمائهم إمامة في اللغة إلا في ناحية واحدة منها ، كناحية قواعدها ، أو ناحية مفرداتها ، أو ناحية آدابها ، ولكن المبرد كان إماماً ذا آراء في هذه النواحي الثلاث جميعاً ، فهم بما كانوا يتقولون عليه إنما يريدون انتقاصه شفاء لما دب في صدورهم عليه من حقد وحسد

ولقد خفت أن يهجس في نفوس السامعين تنزيه قلوب هؤلاء العلماء من رذيلة الحسد فأتبعت ما سبق بقولي لحضراتهم : ولا تستبعدن الحسد على العلماء ، فإن من طبيعته أن يكون أقرب إلى الأدنين منه إلى الأباعد ، وأسرع إلى قلوب العلماء منه إلى قلوب الجهال ، وإذا ما شئتم مزيداً في معرفة هذه الطبيعة — طبيعة الحسد — فاقرءوا رسالة الجاحظ فيه ، وهي أكثر من اثنتي عشرة صفحة

ذلك ما قررته في إجابتي عن السؤال الأخير ، بعد الذي قررته في الإجابة عن الثلاثة قبله . وما كان أشده عجباً وأبعده غرابة أن تطوى صحيفة الإجابات الثلاث وقد سلخت فيها نحو الساعة ، ثم تشوه هذه الإجابة الأخيرة تشويهاً يمسخها مسخاً ، وإذا أنا أمام الواصل إلى منها كالذي يستمع إلى الآية « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة » دون ذكر هذه الجملة الحالية بعدها « وأنتم

سكارى حتى تعلموا ما تقولون » فقد كان هذا الواصل أنني وصفت الشيخ المرصفي « بكثير من الأخلاق الذميمة كالغل والحقد والحسد وسطحية البحث والتطاول الذميم » وأنني تعديت ذلك إلى « تجريح طوائف العلماء على اختلاف مذاهبهم وحكمت بأن طباع الحسد والحقد لا تجد لها مراحاً خصيباً كالذي تجد من قلوب العلماء »

وارحمتا للأخبار من رواتها ! فما كان مني عن الشيخ المرصفي علم الله إلا أسف على ما خالط مؤلفاته من غرور وادعاء وتطاول على المبرد في أسلوب غير حميد ؛ وما زلت معتقداً هذا رضي الدكتور أم سخط ، وواثقاً أن كثيراً من أهل العصر يعلمونه علمي ، ويعرفون كيف يستدلون عليه استدلالي . وكم كنت كما قلت في إجابتي أتمنى خلوّ مؤلفات المرصفي من غروره ، حتى لا يذهب هذا الغرور بفضله ، وما كان مني عن العلماء شهد الله إلا أنهم في بيئة المبرد حسدوه تنوع ثقافته وتعدد إمامته ، وأن هذا الحسد لم يك من شأن علمهم أن يبعده عنهم ، لأن الحسد كما يقولون مُوَكل بالأدنى ، وهو كما ذكر الجاحظ في رسالة الحسد : « قد صار في العلماء أكثر منه في الجهال ، ودب في الصالحين أكثر منه في الفاسقين » . وأنا بهذا الرأي لا زلت ولن أزال أدين ، وافق الدكتور أم خالف .

هذا يا صديقي الدكتور هو الأمر الأصيل على جليته ، قد بسطته موضوعاً في نصابه مقرراً على وجهه ، لا كما تطايرت به الإشاعات بل الإشاعات المغرضة ، وأنت بما تدخله روايات السوء على الأخبار جد خبير . وقديماً قالوا : وما آفة الأخبار إلا رواتها . ولعلك يا صديقي عتبت عليّ أني لم أجبك أول ما سئلت ، وما كان لك أن تعتب ، فتلك عادة الناس فيك وموقفهم منك . على أني أخالف تلك العادة وأجيبك عسى أن تستريح .

تعلمْ يا صديقي أن إغفال إجابتك ما كان إلا استبعاداً عليك أن تفهم ما فهمت ، وإلا أملاً أن يردك هذا الاستبعاد إلى الحقيقة تستقيها بعيداً عني ، من غير كاذب فيها أو مشوه لها ، وشهود المحاضرة كانوا بحمد الله كثيرين . ولا أكتمك سبباً آخر قوى هذا الإغفال في نفسي ، ذاك هو أمرك لي أن أسارع إلى نفي ما سمعت إن كان لم يقع ، وإلى الاعتذار منه إن كان قد وقع ، وإسرافك في هذا الإسراع تطلبه في أول عدد يصدر من الرسالة ، وثالثة الأثافي أن تقول لي : « إلى أن يثبت أن الراوي افترى عليك ، أعلن غضبي على ما بدر منك » . سبحانك اللهم وتعاليت ! فما كان لأحد أن يقول : «ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى » إلا أنت .

تلك الثلاث يا صديقي وغيرهن كن محرضاتي على ترك أول عدد من الرسالة يصدر خلواً من نفيي واعتذاري ، لأقف على ما في كنانتك من سهام ، ولأتذوق ما قد يصيبه غضبك في الجام . وهأنت قد اغتررت فكتبت كلمة ثانية تؤذنني فيها بخصومة تريدها أدبية ، والله أعلم بما تريد ، وترميني فيها بفرية السرقة منك ، جاهلاً كما ستعلم في كلمتي الثانية أنك أنت الذي افتريت وسرقت

وبعد فإن وصاتي لك يا صديقي أن تتريث ، فإن في العجلة وبالاً عليك ، وألا تعود تغتر بسكوتي عنك ، فما مثلي ومثلك فيه إلا كما قال الأول :

ما بال من أسمى لأجبر عظمه
فحفاظاً ويتوى من تطاوله كسرى

أظن خطوب الدهر بيني وبينهم ستحملهم مني على مركب وعر
وإني وإياهم كمن نبه القطا ولو لم تنبه بانت الطير لا تسرى
أناة وحلماً وانتظاراً بهم غداً فما أنا بالواني ولا الضرع الغمر

الباغي يرمي

مملكة الجمال والحق والخير

بقلم الأستاذ محمود علي قراعة الحمامي

يبحث في : ماهو الجمال ؟ هل الجمال حقيقة أم مجرد ظهور ؟ ما هي أصول الجمال الحسي ؟ ما الصلة بين الجمال والتناسب فيه وبين اللذة والألم ؟ ماجمال الفن والحكم والأخوة الانسانية وروح الجماعة ؟ وما جمال الشاعرية والأسلوب والخيال والفكاهة ؟ لوامع الحب ومعانيه وأسراره ، الحب الفاسد والحب الشريف ، ما الحب الروحي الجميل ؟ وما الصلة بين الجمال والسقوط ؟ هل في الجمال الحسي تعقيد ؟ وهل من الجمال التقييد ؟ الصلة بين الجمال والكمال الخلقي ؟ ما هو أسمى أنواع الحب ؟ هل الحب حقيقة أم ظاهرة ؟ حب الله . الخ الخ ...

الكتاب في ٢٨٠ صفحة على ورق مصقول
وثمنه ٥ قروش صاغ والبريد ٢ قرشان
ويطلب من مكتبة الجامعة بشارع محمد علي بمصر